



Humanities and Educational
Sciences Journal

ISSN: 2617-5908 (print)



مجلة العلوم التربوية
والدراسات الإنسانية

ISSN: 2709-0302 (online)

مفهوم عمود الشعر العربي في النقد القديم والنقد الحديث دراسة في المتن النظري^(*)

الباحث/ علي بن عبد الله بن أحمد القرني
محاضر في قسم اللغة العربية بكلية الآداب
جامعة الجوف- السعودية

مفهوم عمود الشعر العربي في النقد القديم والنقد الحديث دراسة في المتن النظري

أ/ علي بن عبد الله بن أحمد القرني
محاضر في قسم اللغة العربية بكلية الآداب
جامعة الجوف بالسعودية

ملخص البحث

إن الأصول الجمالية للنص الشعري العربي التي تحتضنها قضية عمود الشعر، والتجاذبات النقدية القديمة التي جرت بين الشعراء والنقاد؛ جعلت من عمود الشعر قضية مركزية تتفرع منها أغلب قضايا النقد القديم، وقد حظيت هذه القضية باهتمام النقاد العرب في العصرين القديم والحديث، فشكّلت حراكًا ثقافيًا ونقديًا واسعًا، ومن صور هذا الحراك تعاور المفهوم والمقصدية منه؛ فجاءت هذه الدراسة لتحيط هذا الحراك بالاستقراء والوصف والنقد؛ للكشف عن طبيعة المفهوم، وبيان اتجاهاته، وكان ذلك وفق خطة مكونة من ثلاثة مباحث تسبقها مقدمة وتمهيد، وتُنتَهِمُها خاتمة.

وسيحاول البحث من خلالها الكشف عن عبارة عمود الشعر بين الاصطلاح والمفهوم، ثم سيكشف عن دلالة المفهوم في التراث النقدي، والإشكالات الدلالية التي اعترته في النقد الأدبي الحديث.

من أهم النتائج التي توصل لها البحث أن عمود الشعر اكتسب وصف المفهوم لا المصطلح؛ لأن تصورنا له يكون وفق صفات عامة ومتعددة، تتمثل في الألفاظ والمعاني، والصور البيانية والموسيقى، والمصطلح أكثر ثباتاً من المفهوم؛ لأنه يعطي تصوراً دقيقاً ومعنى محدداً للقضية، أما المفهوم فتعثره العمومية وعدم التحديد.

كثرت التصورات النقدية الحديثة التي تحاول تفسير مفهوم عمود الشعر، إلا أن المراد منه على وجه التحديد يتمثل في تلك الصياغة التعبيرية النظامية التي عرفت عند العرب قديماً، وهذه الصياغة التعبيرية شاملة لكل العناصر السبعة التي قام عليها عمود الشعر، فهي لا تكاد تخرج عن هذا الأمر الجامع.

الكلمات المفتاحية: المفهوم - المصطلح - الأمدي - القاضي الجرجاني - المرزوقي.



The concept of the column of Arabic poetry in ancient and modern criticism, a study in the theoretical text

Researcher/ Ali bin Abdullah bin Ahmed Al-Qarni

Lecturer in the Department of Arabic Language,
College of Arts, Al-Jouf University, Saudi Arabia

Research Summary

The aesthetic origins of the Arabic poetic text adopted by the issue of the Vertical Poetry, and the ancient critical interactions that took place between poets and critics, have made the Vertical Poetry a central issue from which most of the issues of ancient criticism branch. This issue received the attention of Arab critics in the ancient and modern eras, as it constituted a broad cultural and critical movement. The interchangeability of the concept and the intentionality of the images of this movement. The aim of this study is to surround this movement with induction, description, and criticism to reveal the nature of the concept, and to indicate its trends. The research will try through these sections to reveal the phrase "Vertical Poetry" between the term and the concept, then it will reveal the significance of the concept in the critical heritage, and the semantic problems that it encountered in modern literary criticism.

Keywords: concept - term - Amidi - Judge Al-Jurjani - Marzouki

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً..
وبعد..

فإن قضية عمود الشعر هي القضية المركزية الأولى في النقد القديم؛ لأنها تمثل خلاصة الأسس الجمالية للشعرية العربية القديمة التي جاء الشعراء المحدثون في العصر العباسي لتطويرها، وتوسيع آفاقها وفق ما تمليه طبيعة الحياة، ومتغيرات العصر، فوقف عدد من النقاد القدامى أمام هذه التجربة الشعرية الجديدة موجهين ومحللين لها وفق ما تمليه عليهم أصول الشعر العربي، وقد كثرت الآراء النقدية الحديثة حول هذه القضية المحورية، واختلفت تصوراتها حول المفهوم ونتائجها، فوجد البحث كثرة التصورات النقدية الحديثة التي تحاول تفسير مفهوم عمود الشعر؛ مما جعل تلك التصورات متضاربة، وينقض بعضها بعضاً، فمرة يصورونه بالشكل العام للقصيدة من مقدمة، ومباشرة غرض، وخاتمة، ومرة بالوزن والقافية، ومرة يجعلونه وصفاً فارقاً بين الشعر ذي الشطرين، والشعر الحر، ومرة يعبرون عنه بالأصول العامة المستوحاة من الأعمال الشعرية القديمة، ومنهم من ينظر إليه من منظور عدم التجديد في المعاني، الأمر الذي فرض على الرغبة في فحص هذه الآراء، وبيان مداخلها المنهجية واتجاهاتها وبيان مدى صحتها وعلاقتها بحقيقة المفهوم في التراث النقدي.

إشكالية البحث وأسئلته:

جاء البحث لتقديم إجابة عن السؤال المعرفي الرئيس الآتي:
كيف تجلّى مفهوم عمود الشعر في الدرس النقدي العربي القديم والحديث؟
وتتفرع من هذا السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية الآتية:

- ١- ما الفرق بين المصطلح والمفهوم وما موقع عبارة عمود الشعر منهما؟
- ٢- ما المراد من مفهوم عمود الشعر في التراث النقدي القديم؟
- ٣- ما المراد من مفهوم عمود الشعر في الدرس النقدي الحديث؟
- ٤- ما اتجاهات الدراسات النقدية الحديثة التي عُيّنت بمفهوم عمود الشعر؟

أهداف البحث:

- ١- إيضاح الفرق بين المصطلح والمفهوم وبيان موقع عبارة عمود الشعر من هذين اللفظين.
- ٢- بيان دلالة عمود الشعر في الدرس النقدي القديم والحديث.
- ٣- بيان الإشكالات التي اعترت مفهوم عمود الشعر وحقيقته.

منهج البحث:

المنهج الوصفي التحليلي، وفق منهجية دراسة الخطاب، ونقد النقد.

تقسيم البحث:

بناء على ما سبق رأى الباحث تقسيم الدراسة وفق الخطة الآتية:

التمهيد: المفاهيم مفاتيح.

المبحث الأول: عمود الشعر في التراث النقدي.

المبحث الثاني: عمود الشعر في الدرس النقدي الحديث.

المبحث الثالث: حقيقة مفهوم عمود الشعر.

الخاتمة: أبرز نتائج البحث.

الدراسات السابقة:

عمود الشعر تاريخاً ومفهوماً، عثمان بن صالح الفريح، بحث محكم منشور في "مجلة الدارة السعودية، العدد الأول المجلد السادس عشر، (١٩٩٩م)"، ويتناول تاريخ ظهور مفهوم عمود الشعر ودلالاته في نطاق الدرس النقدي القديم، في حين أن دراستي امتدت إلى العصر الحديث، وتناولت الإشكالات الدلالية التي تلبست المفهوم.

١- عمود الشعر: دراسة في المصلح النقدي، توفيق علي الفيل، بحث محكم منشور ضمن "سلسلة دراسات عربية وإسلامية- مركز اللغات الأجنبية والترجمة بجامعة القاهرة، المجلد التاسع، (١٩٨٩م)"، ويتناول مبادئ عمود الشعر السبعة ومدى التزام الشعراء القدامى بها، ومدى اختلاف عبارة عمود الشعر عما يسمى بالشعر العمودي والشعر الحر، وتختلف دراستي عنها في أنها عمقت البحث عن دلالة مفهومه قديماً وحديثاً، وتناولت كل الإشكالات الدلالية الحديثة التي حوّلت المفهوم من مساره الصحيح في النقد القديم إلى مسارات عدة في النقد الحديث تضمنت الموسيقى والبناء الخارجي للقصيدة وجمود المعنى.

التمهيد: المفاهيم مفاتيح:

تعد المصطلحات والمفاهيم مفتاح أي علم من العلوم، فبها تعرف حقائقها وأصولها، وعن طريقها يتواصل المنتمون للحقول المعرفية؛ لأن "أي تواصل لغوي لا يتحقق بين الناس إلا بالمفاهيم؛ إذ هي جوهر اللغة الطبيعية العادية، ولبّ اللغة العلمية الاصطناعية"^(١)، وتمثل قاسماً مشتركاً بين مختلف الثقافات الإنسانية؛ ولهذا فإن فهم دلالاتها يعد ضرورة للمنتمين للحقل المعرفي.

(١) المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠١٠م، ص٦.

إن دراسة المصطلحات والمفاهيم لها تأثيرها البالغ في الفعل المعرفي، حيث إنها تؤثر لتصورات القضايا والعلوم، وتضعها في ميادين واضحة لها حدودها المعروفة ومعالمها المضيئة، "وليس من مسلك يتوصل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية، حتى لكانها تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال، ليست مدلولاته إلا محاور العلم ذاته، ومضامين قدره من يقين المعارف وحقيق الأقوال"^(١).

ومن هنا نبعت أهمية دراسة مفهوم عمود الشعر في بداية البحث؛ لأنه ببيان المفهوم ومعرفته نكون قد كوّننا تصوراً أولياً، وفهماً سليماً للقضية، وحين نطلق على مفهوم عمود الشعر مصطلحاً فإن ذلك الإطلاق يُعدّ تجاوزاً وعفواً؛ "لأن المفاهيم لا تتحقق إلا في المصطلحات، وإلا كانت أفكاراً غير مكتملة، يلقيها الغموض والاضطراب، ولا تتخذ صورة محددة أو قابلة للتحديد، وبمقدار ما تتضح المفاهيم وتتسق، وتدخل في منظومة فكرية، يسهل وجود المصطلحات واتساقها وانتظامها، فالمصطلحات هي الحقيقة الموازية للمفاهيم، تزيد دقتها وانتظامها"^(٢).

فهناك تماثل أو تقارب كبير بين المفهوم والمصطلح، إلا أن هناك فروقاً دقيقة بين كل منهما، فالمصطلح أكثر ثباتاً من المفهوم، حيث إنه يعطي تصوراً دقيقاً، ومعنى محدداً للقضية، وهو "جزء من اللغة بوصفها مرجعاً، ولكنه ليس جزءاً من اللسان أو الكلام بوصفه عملاً مرتجلاً؛ ذلك لأن المصطلح في العلوم والفنون والحرف، ولا سيما في العصور الحديثة، لفظ مصطنع"^(٣)، وهذا ما يدخله في مسارات معرفية محددة ودقيقة، تضمن له الثبات والوضوح، أما المفهوم فتعريفه العمومية وعدم التحديد، وربما يتبدل من سياق إلى آخر؛ ولذا فإنه أكثر مرونة من المصطلح، وربما يكون مرتجلاً من أحدهم لحاجة الحقل المعرفي له، فهو "فكرة عامة تصور حقيقة الشيء المجردة، أو تصور صفته المجردة، بمعزل عن أفراد ذلك الشيء، وبما يشمل جميع أفرادها في الوقت نفسه، وذلك كله عبر مصطلح خاص يوضع، أو يكون موضوعاً للتعبير عن تلك الحقيقة أو تلك الصفة"^(٤).

على الرغم من تركيز عمود الشعر على مسألة الصياغة المتمثلة في التقاليد الشعرية القديمة التي يعتمد إليها في بناء الشعر، إلا أن هناك الكثير من المفاهيم والمصطلحات النقدية التي تندرج تحته، مثل: الشرف، والصحة، والجزالة، والاستقامة، والإصابة، والمقاربة، والمناسبة، والاتحام، والمشاكلة، وحقيقة بعض هذه المفاهيم تعترضها الضبابية أو عدم التحديد، ولذا سنجد لها أكثر من

(١) قاموس اللسانيات، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط١، ١٩٨٤م، ص١١.

(٢) نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية) نظريات تأسيسية ومفاهيم ومصطلحات، مصطفى الجوزي، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ج٢، ص٦.

(٣) المصدر السابق، ص٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٧-٨.

استعمال في تاريخ النقد القديم، وأكثر من تفسير لدى بعض النقاد المعاصرين، فمفهوم الجزالة على سبيل المثال يستخدم في النقد القديم بمعنى الفخامة، الذي يحصل في أغراض الفخر والهجاء والمدح، ويقابله في هذه الحالة لفظ الرقة، الذي يستخدم في إطار غرض الغزل، وربما يكون بمعنى الامتلاء، أي: امتلاء الكلام بمعناه، ويقابله في هذه الحالة لفظ الركافة أو الضعف الذي يدل على عدم امتلاء الكلام بمعناه المطلوب، وهذا التعدد المعنوي هو ما يكسب مفهوم عمود الشعر صفة العمومية، والعمومية لا تتناسب بأي حال مع ثبوتية وخصوصية الاصطلاح؛ لأن المصطلح كما يصوره جبور عبد النور في (المعجم الأدبي) "لفظ موضوعي يؤدي معنى معيناً بوضوح ودقة، بحيث لا يقع أي لبس في ذهن القارئ أو السامع"^(١)، ومن هنا فإن أهم سمة في المصطلح أن يكون أكثر وضوحاً وتماكلاً، وأن يعطي معنى محدداً، وهذا لا ينطبق على عمود الشعر؛ لأن تصورنا له يكون وفق صفات عامة ومتعددة تتمثل في الألفاظ والمعاني والصور البيانية والموسيقى، وهذا ما جعل عبد الله الطيب في كتابه (المرشد) يرفض إطلاق لفظة الاصطلاح على هذه العبارة؛ لأنها لا تتعدى عن كونها وصفاً وتمثيلاً لما ينبغي أن يعمد إليه^(٢).

المبحث الأول: مفهوم عمود الشعر في التراث النقدي:

إنَّ طبيعة أي مفهوم نقدي قديم أن ينشأ في محيط حضاري قائم على المكانية، وأقصد بالمكانية: تلك البيئة البدوية التي خرجت منها المفاهيم والمصطلحات النقدية، حيث إن كثيراً من مسميات المفاهيم خرجت من رحم البيئة البدوية، فكانت هي الحقل الدلالي الأول لتسمياتهم الاصطلاحية؛ لأن البيئة كانت في نظر الناقد القديم هي السبيل الأول في إيضاح قضاياها، فمفاهيم ومصطلحات الفحولة، والبيت، والوتد، والمعاظلة، والحوشي وغيرها كلها أخذت من تلك البيئة البدوية.

فعندما سأل الأخفش الخليل الفراهيدي عن سبب تسميته للهجج بهذا الاسم قال: "لأنه يضطرب شبه بهزج الصوت، قلت: فالرجز؟ قال: لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام، قلت: فالرمل؟ قال: لأنه شبه برمل الحصير، لضمّ بعضه إلى بعض"^(٣)، وفي هذه التعليقات ما يبيّن كيان البداوة في تسميات العرب لمصطلحاتها ومفاهيمها.

وقد أحس حازم القرطاجني بهذه العلاقة الوطيدة بين البيئة والمصطلح عند العرب فقال واصفاً لعلاقة الشعر بالبيت البدوي: "فجعلوا الأجزاء التي تقوم منها أبنية البيوت مقام الكسور

(١) المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ٢، ١٩٨٤م، ص٢٥٢.

(٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، دار الفكر، الكويت، ١٩٨٩م، ١٩٢/٤.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وأدابه، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجبل، بيروت، ٥، ١٩٨١م، ١٣٦/١.

لبيوت الشعر، وجعلوا أطراد الحركات فيها الذي يوجد للكلام بين استواء واعتدال، بمنزلة أقطار البيوت التي تمتد في استواء، وجعلوا ملتقى كل قطريه، وذلك حيث يفصل بين بعضها وبعض بالسواكن ركناً... وجعلوا الوضع الذي يبنى عليه منتهى شطر البيت، وينقسم البيت عنده نصفين بمنزلة عمود البيت الموضوع وسطه، وجعلوا القافية بمنزلة تحصين منتهى الخباء^(١).

وكذلك الحال في لفظة العمود، فهي مأخوذة من الخشبة القائمة في وسط الخباء، فالعمود في تصور الناقد القديم هو محور البيت والبناء، وهو الأساس الذي لولاه لما كان هناك بناء وبيت ومأوى، ولذا فإن "الارتباط بين العمود والبيت في الوعي اللغوي، يفضي إلى انسجام لا واعي بين العمود والشعر، وقد رأينا أن البيت بمعناه البنائي البدوي (الخباء) يدخل إلى وصف بناء الكلام...، وبذلك يأتي عمود الشعر في تعالق وتناغم تنطبع به آلية التسمية، وفضاء التصور الذي تحمله اللغة لكيثونة العربي اجتماعياً، وحسياً، وإبداعياً"^(٢).

ولذا لا أذهب مع عبد الله الطيب عندما رأى بأن من يذهب إلى أن العمود يدل على الخيمة فهو متكلف^(٣)؛ لأن أغلب المفاهيم والمصطلحات في التراث العربي المختص بعلوم الأدب إنما كانت مستوحاة من البادية، كما لاحظنا ذلك جلياً في تسميات الخليل الفراهيدي، ثم إن مفهوم عمود الشعر تحديداً كان ينطلق من عدة منطلقات، أبرزها المكانية التي تمثلها البادية، ولذا كان الأمدي يحمّد للبحرّي هذه المكانة الجليلة، فيصفه بأنه: "أعرابي الشعر"، وأنه على "مذهب الأوائل"، والأعرابي مكانه البادية، وكذلك الأوائل المتمثلين في شعراء العصر الجاهلي مكانهم البادية.

ولو أردنا أن نكشف عن دلالة مفهوم عمود الشعر في النقد القديم، فلن نجد تحديداً واضحاً له إلا من خلال عدة صفات ومفاهيم عدة أوردها النقاد القدماء، فالأمدي هو أول ناقد تحدث عن عمود الشعر في تاريخ النقد الأدبي، وقد حصر المفهوم في طريقة شعر البحرّي، وذكر من صفاته أنه: "حسن التأني، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يورد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لا تفتقر بما استعيرت له، وغير منافرة لمعناه، فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف، وتلك طريقة البحرّي"^(٤).

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م، ٢/٢٥٠-٢٥١.

(٢) القارئ القياسي القراءة وسلطة القصد والمصطلح والنموذج (مقاربات في التراث النقدي)، صالح زيّاد، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٥٩.

(٣) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ١٩٢/٤.

(٤) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحرّي، الحسن بن بشر الأمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر وعبد الله المحارب، دار المعارف ومكتبة الخانجي، مصر، ط٤، ١٩٩٤م، ١/٤٢٣.

وتابع القاضي الجرجاني خطوات الأمدي في تحديد المفهوم وحصره في ست خصائص، حاول من خلالها أن يضفي على مفهوم عمود الشعر التخصصية، إلا أن هذه التخصصية لا تكون إلا عبر مفهومات عدة، فقال: "كانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبهه فقارب، وبذّه فأعزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله، وشوارد أبياته، ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة، إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض"^(١).

وبعد القاضي الجرجاني تحدث أبو علي المرزوقي في مقدمته على شرح ديوان الحماسة لأبي تمام عن قضية عمود الشعر، وحاول أن يستدرك على سابقه ما لم يذكره من أسس المفاضلة بين شاعر وآخر، فحذف وأضاف، ووسّع في بعض العناصر والمفاهيم، ووضع لكل عنصر معياراً يوضح ماهيته وحدوده، مستفيداً في ذلك من كل التجارب النقدية السابقة عليه، فقال فيها: "إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، ومن اجتماع هذه الثلاثة كثرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها، على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية، حتى لا منافرة بينهما"^(٢).

هذه الأصول الفنية السبعة التي استقر عليها المرزوقي، هي خلاصة مرادهم من مفهوم عمود الشعر في النقد القديم، وهي عبارة عن معايير جمالية، وضعوها نتيجة استقراء لفنيات القصيدة القديمة، فكانت أساساً ومنطقاً للمفاضلة بين الشعراء من جهة الجودة والحسن في الصياغة الشعرية.

(١) الوساطة بين المتنبّي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ص ٣٣-٣٤.

(٢) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢م، ص ١٠.

المبحث الثاني: مفهوم عمود الشعر في رؤية النقد الحديث:

لقد شهدت قضية عمود الشعر الكثير من الدراسات في عصرنا الحديث، ولكنها لم تتفق على رؤية واحدة من جهة تحديد المفهوم فنياً، فكثرت التصورات التي تحاول تفسير موقف الناقد القديم منه، مما جعل تلك التصورات متضاربة وينقض بعضها بعضاً.

إن اختلاف النقاد المعاصرين في تحديد دلالة عمود الشعر أمر يلاحظه الباحث بجلاء، وذلك من خلال التصورات العديدة التي ألبسوها مفهوم عمود الشعر، فمرة يصورونه بالشكل العام للقصيدة، من مقدمة، ومباشرة غرض، وخاتمة. ومرة بالوزن والقافية، ومرة يجعلونه وصفاً فارقاً بين الشعر ذي الشطرين والشعر الحر. ومرة يعبرون عنه بالأصول العامة المستوحاة من الأعمال الشعرية القديمة. ومنهم من ينظر إليه من منظور عدم التجديد في المعاني.

فما المعايير التي التزمها الناقد المعاصر حتى يصور عمود الشعر بهذه التصورات؟ وهل اتبع منهجية واضحة في تتبع المفهوم في النص النقدي القديم؟ وهل فعلاً كان عمود الشعر حجر عثرة أمام عدم التجديد والتحديث في المعاني الشعرية؟ كل هذه التساؤلات وغيرها سأحاول الإجابة عنها من خلال عرض آراء النقاد المعاصرين، وسأقوم من التصورات ما يحتاج إلى تقويم، وأبين أيها صحيح ما أمكن.

١ - عمود الشعر وموسيقى القصيدة:

إن من أكثر التفسيرات رواجاً بين النقاد المعاصرين قولهم بأن المقصود من قضية عمود الشعر في النقد القديم الوزن والقافية، أو الشعر ذو الشطرين، ويضعونه في مقابل الشعر الحر، فعلى سبيل المثال لا الحصر يبيّن طه عبد الرحيم مقالته: عمود الشعر في عيون خصومه^(١). على هذا التصور، فعمود الشعر في تصوره: تلك القصائد التي تتشكّل على النمط المألوف للقصيدة العربية، من حيث الوزن والقافية، أو القواعد الخليلية، والخصم هو الظاهرة الجديدة التي سميت بالشعر الحر، وكذلك هيا الحوراني في مقالته: عودة إلى عمود الشعر وطغيان التناس^(٢). فعمود الشعر عندها هو: تلك القصائد التي تلزم نفسها بحراً وقافية واحدة.

وحقيقة قضية هذين الباحثين ومن لفّ لفهما من النقاد المعاصرين تظهر في وقف الموسيقى الشعرية على الشعر ذي الشطرين، والذي يسمونه بعمود الشعر، أو الشعر العمودي، وكأن الشعر الحر قد تحرر منها، إلا أنه في واقع الأمر كلا الشكلين يتفقان موسيقياً، من حيث اشتراكهما في الوحدة الإيقاعية الواحدة، والاختلاف بينهما يكمن في أنظمة التوزيع، حيث إن الشكل الكلاسيكي

(١) عمود الشعر في عيون خصومه، طه عبد الرحيم عبد البر، مجلة ببادر، السعودية، ٧٤، ١٩٩٢م، ص٢٦-٣٤.

(٢) عودة إلى عمود الشعر وطغيان التناس، هيا الحوراني، أقلام جديدة، الأردن، ٢٤٤، ٢٠٠٨م، ص٨٤-٨٨.

يقوم على الرتابة، والشكل الجديد يقوم على تفتيت هذه الرتابة، ويتحرر منها، ولذا تقول نازك الملائكة: "إن الشعر الحر ظاهرة عروضية قبل كل شيء"^(١)، ويقول عبد الواحد لؤلؤة: "إنني أجد في هذا العمل انتقالاً من العمود الخليلي إلى عمود آخر يختلف عنه، وربما يمكن أن أسميه: شعر العمود المطور"^(٢)، وعلى هذا "فليس الشكل الجديد للقصيد الجديدة إلا إضافة تاريخية لهذه الأشكال، وليس تجاوزاً لها، أو إنهاءً لأشكالها"^(٣)، ومن هنا فإن توفيق الزبيدي يرى بأن "كل هذا سوء فهم للتحديث الشعري، إذ يلخص في مجرد تجاوز شكلي، ومن هنا تصبح ظاهرة الشعر الحر موازية لظاهرة الموشح"^(٤).

إضافة إلى أن من يقنن العمود بهذا الوصف، أي: الوزن والقافية، فإنه يترتب عليه "إسقاط شرائط العمود الشعري، والإبقاء على الجانب العروضي، وقد تم هذا الإسقاط عمداً بتوظيف قراءة العمود، أو ما يمكن التعبير عنه بقراءة التوجيه، يسعى فيه الباحث إلى إبراز العمود في صورة مشوهة، قصد تحويل ذوق المتقبل بطريقتين: أولاًهما: إقناع القارئ بأن الشعر العمودي شعر مصطنع، وأشكال متحجرة، بل هو مجرد نظم ورصف ألفاظ. والطريقة الثانية: إقناع القارئ والشاعر بعدم ممارسة الشكل العمودي؛ على أساس أن التجديد لا يتم إلا بتجاوز العمود، ولا أدل على ما نقوله من نعت الشاعر العمودي اليوم بالناظم تارة، والرجعي تارة أخرى"^(٥).

والبحث يتفق تماماً مع ما ذهب إليه توفيق الزبيدي؛ لأن القدماء كانوا يفرقون بين الكلام المنظوم الذي ليس فيه من خصائص الشعر إلا الوزن والقافية، وبين الكلام المنظوم الذي يقوم على الشاعرية، فهذا ابن سلام يصرح بأن الأشعار التي تنسب إلى محمد بن إسحاق ليست شعراً، وإنما هي "كلام مؤلف معقود بقوافٍ"^(٦)، وكذلك قال يحيى بن علي المنجم: بأنه "ليس كل من عقد وزناً بقافية فقد قال شعراً"^(٧)؛ لأن "الشعر أبعد من ذلك مرماً، وأعز انتظاماً"^(٨).

ثم إن نسبة الشعر ذي الشطرين إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، وتسميته بـ (الشعر الخليلي). وكأنه مكتشفه الأول فيها نظر؛ لأن الشعر وجد قبل وجوده، وما قام به الخليل لا يتعدى تأملات ودقة ملاحظة للشعر العربي، فابتكر من خلاله هذه الأوزان العروضية الموجودة فيه مسبقاً.

(١) قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٧٨م، ص٦٩.

(٢) قضية الشعر الحر في العربية، عبد الواحد لؤلؤة، مجلة شعر، ع٤٣، ١٩٦٩م، ص٦٦.

(٣) الشعر بين الرويا والتشكيل، عبد العزيز المقالح، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٨٥م، ص٢١٣.

(٤) عمود الشعر في قراءة السنة الشعرية عند العرب، توفيق الزبيدي، دار قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، طبعة منقحة ٢٠٠٢م، ص٢٢.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٠.

(٦) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، ٨/١.

(٧) الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، ١٩٣٣م، ص٥٤٧.

(٨) المصدر نفسه، ص٥٤٧.



وكذلك إطلاق لفظة (العمودي) على نوع خاص من الشعر فيه نظر، فلو ذهبنا مثلاً إلى الأدلة الشرعية التي يعتمد عليها علم الفقه، ويستمد منها أحكامه، لوجدنا أنها تسمى بأصول الفقه، لا الفقه الأصولي؛ لأنه لا يوجد فقه أصولي، وفقه غير أصولي، بل هناك أصول يستمد الفقه منها أحكامه، وكذلك الحال في الشعر، ولذا نرى بعض النقاد يتجهون لربط مفهوم عمود الشعر بسياق الفقه الإسلامي، فيقول أحدهم بأن المفهوم بمجمله: "تفوح منه رائحة التأثير بالفقه الإسلامي، التي تعني فهم النص المقدس، واستنباط ما يجب استنباطه، في ضوء أصول وضوابط وضعها العلماء"^(١).

٢ - عمود الشعر وبناء القصيدة:

يعد ربط قضية عمود الشعر بمسألة بناء القصيدة من براءة استهلال، وحسن تخلص، وحسن ختام من التصورات الحديثة لفهم دلالة المفهوم، ونجد ذلك عند وليد عثمان^(٢)، حيث إنه يربط بين هيكل القصيدة وعمود الشعر؛ انطلاقاً من المطلع الذي يتضمن المقدمة أيّاً كانت، ومن ثم حسن التخلص منها إلى مباشرة الغرض، ثم حسن الختام الذي يختص بخاتمة القصيدة، ولو تتبعنا أبواب عمود الشعر ومعايير كل باب لما وجدنا أي دلالة تتعلق بالبناء القديم الذي يتكون من مقدمة، ومباشرة غرض، وختام.

وإذا وافقنا جدلاً على أن المراد من عمود الشعر طريقة البناء القديمة، فما حال القصائد الجاهلية والإسلامية والأموية ذات الغرض الواحد، التي لم تتبع النهج الشائع في البناء القديم مع عمود الشعر؟، ولم لم تُواجه وتُناهض دعوة أبي نواس الشهيرة للخروج على نهج القصيدة، من خلال إحلال وصف الخمر محل وصف الأطلال في مقدمة القصيدة؟ فقد ذهبت دعوته أدراج الرياح، ولم يلق لها الناقد القديم اهتماماً، وذلك على عكس ما يرى أحمد أمين بأن هذه الدعوة قد حفلت بالهجوم من الناقد القديم، فيقول: "مما يؤسف له أن هذه الدعوة السخيفة لقيت نجاحاً كبيراً، وشلت الأدب العربي شلاً فظيماً في العصور كلها إلى اليوم، فقد هاجم هؤلاء الجامدون كل من حدثته نفسه بتجديد، فإذا خرج أبو نواس عن المألوف، ودعا إلى عدم البكاء على الدّمن، والوقوف على الديار، هاجموه وسبوه، إلى أن اضطروه في مديحه للخلفاء أن يعدل عن رأيه، ويقف على الديار، ويصف ناقته حتى يصل إلى ممدوحه"^(٣)، وحقيقة هذا الكلام أنه باطل، ولا دليل على صحته، فالمنتبج للنقد حول أبي نواس قديماً لا يجد أي هجوم أو ثورة أو حتى سب كما يُدعى ضد

(١) عمود الشعر مواقع ووظائفه وأبوابه، عيد الكريم محمد حسين، دار النميز، دمشق، ٢٠٠٣م، ص٢٥.

(٢) نظرية عمود الشعر العربي في الميزان نحو نظرية للفحولة، وليد عثمان، مقالة علمية، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، الجزائر، العدد: ٢٧، ٢٠١٧م، ص٨٨-١٠٥.

(٣) فيض الخاطر مقالات أدبية واجتماعية، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ص٢٤.

هذه الدعوة، وإنما لقيت هذه الثورة، أعني: ثورة أبي نواس على الوقوف على الأطلال الاهتمام البالغ من النقاد المعاصرين، فأحدثت جدلاً كبيراً بينهم، لدرجة أنه قامت حولها دراسات متخصصة، ومنها: دراسة: البناء الفني للمدحة عند أبي نواس لعثمان موافي. ودراسة: التطور الفني في شكل القصيدة وموضوعاتها في القرن الثاني الهجري لأحلام الزعيم. ودراسة خمريات أبي نواس. ودراسة في تحليل المضمون والشكل لأيمن زكي العشماوي، ودراسة: حركة الشعر العباسي في مجال التقليد والتجديد بين أبي نواس ومعاصريه لحسين خريس، وهناك آراء كثيرة حول هذه القضية في تضاعيف الكتب والمؤلفات، ومنها: كتاب: تاريخ النقد العربي من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري لطفه إبراهيم، وكتاب: تاريخ الشعر العربي لنجيب البهيتي، وكتاب: النقد المنهجي عند العرب لمحمد مندور، وكتاب: اتجاهات الشعر العربي لمحمد مصطفى هدارة.

وفي تصوري أن سبب تفسير بعض المعاصرين لعمود الشعر بالنسج الشائع للقصيدة الجاهلية، هو تصورهم أن ابن قتيبة حاول أن يفرض على الشاعر المحدث عدم الخروج عن ذلك النسج، فقال: "وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكي عند مشيد البنيان؛ لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي"^(١)، فيقصد ابن قتيبة بهذه الأقسام مقدمة القصيدة، والغرض، والخاتمة، إلا أن كلامه هنا له سياقه الخاص ودلالاته، فليس كما تصور البعض من هذه الدعوة أن تبقى القصيدة عند المحدث كما هي عند الجاهلي، ولكن المقصود منها رفض التقليد الأعمى، ويسميه إحسان عباس "بالتقليد الشكلي المضحك"^(٢)، فيأتي محدث ويقلد القديم، باستحداث منزل مشيد وعامر مكان منزل دائر، أو رسم عاف، فللشاعر المحدث أن يبدع ما شاء من المقدمات دون تشويه للصورة القديمة، هذا الذي أراده ابن قتيبة، والذي يهمنى هنا أن حديث ابن قتيبة ومسألة بناء القصيدة الجاهلية بشكل عام قضية لا علاقة لها بقضية عمود الشعر، كما تصور ذلك بعض النقاد المعاصرين؛ لأن مجمل أبواب العمود كما سنلاحظ عند عرض شرحها لم تلق لهذه المسألة اهتماماً كبيراً فيه، وعلى هذا فإن هذه الرؤية من التصورات الضيقة لعمود الشعر.

(١) الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٢م، ٧٧/١.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، إحسان عباس، ط٤، ١٩٩٩م، ص١٠١٩.

٣- عمود الشعر وابتكار المعاني:

يرى بعض النقاد المعاصرين أن مفهوم عمود الشعر متوقف ضد ابتكار المعاني وعدم التجديد فيها، فيقول أحمد أمين: "وإذا انحرف أبو تمام عن المألوف قليلاً بابتكار بعض المعاني والتعمق فيها، والتحليق بها في الخيال، قالوا: إنه خرج على عمود الشعر، وفضلوا البحتري عليه؛ لأنه ألصق بهذا العمود، حتى قضوا قضاءً مبرماً على كل تجديد"^(١)، ويقول آخر: "وعمود الشعر حسب توصيف المرزوقي في شرح الحماسة... أي: الابتعاد عن الغموض، والغوص في الأعماق السحيقة، بحثاً عن الجواهر وأبكار المعاني"^(٢).

وفي حقيقة الأمر أن هذا التصور غير دقيق كسابقه من التصورات، فلا يوجد في أبواب القضية ما يدعم صحته، بل إن أول باب في عمود الشعر يدعم فكرة الابتكار والاختراع في المعاني، كما سنلاحظ في مبحث الدراسات الشارحة، فلا بد لكل شاعر أن يقدم جديداً، حتى يكون متفرداً فيما يقدمه، متميزاً على غيره من الشعراء، ومن هنا ظهرت قضية السرقات في النقد القديم، فكلما كان الشاعر مبدعاً للمعاني ومتفرداً بالجديد منها كان مقدماً على من يستعمل صوراً قديمة، ليس له فضل فيها إلا إعادة صياغتها.

وهل يعقل أن البحتري على شاعريته المعروفة لم يبتكر أي معنى، ولم يساير عصره في شعره؟ وهل يعقل أن تكون وظيفته في ميدان الشعر التدوير والتكرير للمعاني القديمة، بخلاف أبي تمام، فأصبح بذلك ألصق بعمود الشعر؟، إن هذين التساولين يفسران ما يذهب إليه كل من يقصر القضية على عدم تجديد المعاني.

ولو ذهبنا إلى أصل القضية عند الأمدي لوجدنا أن الابتكار والاختراع من معايير التفضيل عنده، فيقول: "وجدت أهل النصفة من أصحاب البحتري، ومن يقدم مطبوع الشعر دون متكفه، لا يدفعون أبا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها، والإبداع والإغراب فيها، والاستنباط لها... فقد سلموا له الشيء الذي هو ضالة الشعراء وطلبته، وهو لطيف المعاني، وبهذه الخلّة دونما سواها فضل امرؤ القيس؛ لأن الذي في شعره من دقيق المعاني، وبديع الوصف، ولطيف التشبيه، وبديع الحكمة فوق ما في أشعار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام، حتى إنه لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من أن تشتمل من ذلك على نوع أو أنواع، ولولا لطيف المعاني واجتهاد امرؤ القيس فيها، وإقباله عليها لما تقدم على غيره، ولكان كسائر شعراء أهل زمانه؛ إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم، ولا لألفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لألفاظهم، ألا ترى أن العلماء

(١) فيض الخاطر، مقالة جنابة الأدب الجاهلي أو نقد الأدب العربي، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٢) الجواهري وعمود الشعر، طراد الكبيسي، المجلة الثقافية، ٤٢، الأردن، ١٩٩٧م، ص ١٠٣.

بالشعر إنما احتجوا في تقديمه بأن قالوا: هو أول من شبه الخيل بالعصي، وذكر الوحش والطير، وأول من قال: قيد الأوبد، وأول من قال كذا، وقال كذا، فهل هذا التقديم إلا لأجل معانيه؟^(١).

فمن نص الأمدي نعلم حقيقة توجه الناقد القديم من ناحية مواكبة العصر، وفضل المبتكر والمخترع للمعاني عندهم، بعكس التشويه الذي يصوره لنا بعض النقاد المعاصرين، فلا ظلم كبير ضد التجديد والتحديث في المعاني، ولا ابتعاد عن جواهرها وأبكارها، كما وصفه البعض.

وربما أشكل على بعض النقاد المعاصرين قول الأمدي: "ولأن أبا تمام شديد التكلف...، وشعره لا يشبه شعر الأوائل، ولا على طريقتهم؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة"^(٢)، فظنوا أنه متناقض مع نفسه، حيث إنه امتدح أبا تمام لتميزه في ابتكار وابتداع المعاني، ولذات السبب حكم عليه بالخروج على مذهب الأوائل، فعلى سبيل المثال قال الناقد إحسان عباس في ذلك: "على أن الأمدي رفض اعتبار توليد المعاني أساساً في الشعر"^(٣)، فرأى بأن الأمدي تناقض في هذا "حين جعل ميزة امرئ القيس الكبرى في المعاني المبتكرة"^(٤).

والحق أن الأمدي لم يتناقض حينما أقر بتميز أبي تمام في ابتكار المعاني، وذمه في مسألة المعاني المولدة، لأن الكلام المولد في القواميس العربية إنما يقصد به "كل لفظ كان عربي الأصل، ثم تغير في الاستعمال"^(٥)، والمولد من الرجال: "العربي غير المحض"^(٦)، والسياق النقدي القديم لم يكن يعني بمفهوم التوليد: توليد معاني جديدة من معاني قديمة، وإنما يطلقونه على كل كلام نطق به المولّدون ولو كان مبتكراً، وكذلك يمكن أن يطلق على كلام العربي الخالص؛ لكثرة مخالطته غير العرب، ولذلك يرى شكري عياد أن لفظة المولد تقابل لفظة "الأوائل"، وترادف لفظة "المحدث"، ويرى أن "لهذه الكلمة دلالات عنصرية وحضارية، تتجاوز مسألة اللغة باعتبارها أداة الفن الشعري، فالعرب الأقحاح أو عرب البادية هم الذين تؤخذ عنهم اللغة، فعندهم كملت خصائصها، حتى نزلت بها معجزة القرآن، ولكن العرب خرجوا من جزيرتهم، وسكنوا الأمصار في شتى أقطار العالم الإسلامي، واختلطوا بغيرهم من الشعوب، وأصبحوا مولدين، وأصبحت لغتهم مولدة أيضاً؛ لأنها فقدت الكثير من خصائصها، وخالطتها شوائب من لغات تلك الشعوب"^(٧).

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري، ٤٢٠/١.

(٢) المصدر نفسه، ٥-٤/١.

(٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الشروق، عمان، الأردن، ط ١ الإصدار ٤، ٢٠٠٦م، ص ٣١٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣١٥.

(٥) لسان العرب، ابن منظور، تحقيق، مجدي فتحي السيد، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، ٢٠٠٩م، ٤٤٥/١٥.

(٦) المصدر نفسه، ج ١٥، ص ٤٤٥.

(٧) المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، شكري محمد عياد، عالم المعرفة، ١٩٩٣م، ص ١٩٣.

وعلى هذا الأساس كثيراً ما كان الأمدي يرفع من شأن البحرّي؛ لأنه: "أعرابي الشعر مطبوع، وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف"^(١)، وهذا يعطينا تصوراً بأن الأمر يعود إلى التكوين اللغوي والثقافي في الشاعر، فالبحرّي نشأ في بيئة أعرابية بدوية، في حين أن أبا تمام نشأ في دمشق، فكان شاعراً حضرياً؛ ومن هنا فإن في دلالة مفهوم عمود الشعر تحقيق للذات العربية؛ لأن النقاد "يتحرّون في الدلالة على الذات العربية ما يفي بصفائها وتمحّضها وصدقها، وهي الصفات التي تأتي زمانياً من القديم، ومكانياً من البادية، وعرقياً من العرب"^(٢)، وهذا يفضي بنا إلى أن لغة المولّد الشعرية مهما بلغت من الجودة والإحسان، إلا أنها دائماً تكون في مرتبة أدنى من مرتبة لغة الأعراب.

المبحث الثالث: حقيقة مفهوم عمود الشعر:

إذا كانت كل تلك التصورات غير دقيقة في تصورها لعمود الشعر، فما حقيقته؟ وماذا أراد الناقد القديم من هذا المفهوم؟، لقد عبر كثير من المعاصرين عن هذا المفهوم بالتقاليد المتوارثة عن الشعر الجاهلي، فيقول أحدهم: "يقصدون به تلك التقاليد المتوارثة، التي سبق إليها الشعراء الأوائل"^(٣)، ويقول آخر: "هو طريقة العرب القدماء في نظم الشعر، كما نعني به التقاليد الشعرية المتبعة عند العرب"^(٤)، ويقول آخر: "إن تناول القدامى لعمود الشعر تشده حركة انحسار مرجعي، فعلى مستوى النصوص يظهر لنا الشعر الجاهلي في صورة المدونة الصغرى، أعني: الشعر المحدث"^(٥).

ولو رجعنا لكلام الأوائل لوجدنا ما يؤيد هذه النظرة، فهذا الأمدي يقول عن عمود الشعر هو: "مذهب الأوائل"، و"الطريقة المعهودة"، و"النهج المعروف، والسنن المألوف"^(٦)، وهذا المرزوقي يقول: "فإذا كان الأمر على هذا فالواجب أن يتبين عمود الشعر المعروف عند العرب"^(٧)، وكل هذه الأقوال تشير إلى مدونة العرب الأولى المتمثلة في الشعر الجاهلي، ولكن السؤال هو: ما حقيقة هذه التقاليد التي أرادها الناقد القديم؟ وما النهج المعروف والسنن المألوف الذي يريده الأمدي؟

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحرّي، ٤/١.

(٢) الفارئ القياسي القراءة وسلطة القصد والمصطلح والنموذج (مقاربات في التراث النقدي)، ص ١٥٧.

(٣) عمود الشعر العربي في موازنة الأمدي، علي صبح، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٤٥.

(٤) عمود الشعر العربي وتقنيات الشاعر: الإصاوية في الوصف أنموذجاً، تركي أحمد، مجلة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، السعودية، ٦٤، ٢٠١٤م، ص ٤٩٩.

(٥) عمود الشعر في قراءة السنة الشعرية عند العرب، ص ٢٧.

(٦) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحرّي، ٤/١ - ١٤.

(٧) شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، ص ١٠.

في واقع الأمر أن الناقد القديم لم يرد شيئاً مما ذهب إليه بعض النقاد المعاصرين عندما حاولوا أن يفسروا مفهوم عمود الشعر من منظور القدم والحداثة، من حيث الوزن والقافية، أو شكل القصيدة التقليدي من مقدمة وغرض وخاتمة، أو حتى من حيث اختيار الألفاظ السهلة التي تجعل اللغة الشعرية سهلة للخاص والعام من المتلقين، وإنما أراد بالتقليد هنا الصياغة الفنية للمعنى الشعري، فلا بد للشاعر أن يصوغ معناه بذلك الأسلوب المعروف عن العرب الذي التزمه البحري وغيره من شعراء عصره، فمن يتتبع نقد الأمدي على أبي تمام يجد أن تركيزه على طرق الصياغة الملتوية التي يأتي بها أبو تمام، فيعمي المعاني عمداً ويغمضها، لا بسبب أنه اخترع معاني جديدة لم يأت بها أحد من قبل، ولا بسبب أنه استخدم نوعاً من الألفاظ الصعبة التي تعرب بالمعنى، وإنما بسبب طريقة صياغته الجديدة، ولذا لم تكن هناك خصومة حول بشار بن برد أول المحدثين، ولا حول أبي نواس، صاحب دعوات التخلي عن النظام التقليدي للقصيدة العربية، ولا غيرهما من المحدثين، إلا أن أبا تمام كان له نظام نظمي خاص، لم يعهده الناقد القديم في نظم الشاعر العربي منذ أن نطق بالشعر، وعلى هذا قالوا: إن أبا تمام خرج على عمود الشعر.

من هنا يقول الأمدي: "وينبغي أن تعلم أن سوء التأليف، ورديء اللفظ، يذهب بطلاوة المعنى الدقيق، ويفسده ويعميه، حتى يحتاج مستمعه إلى طول تأمل، وهذا مذهب أبي تمام في معظم شعره"^(١)، فعلى تميز أبي تمام في اختراع وإبتكار المعاني التي لا يستطيع البحري أن يشق غباره في إبداعها، إلا أن أبا تمام أفسد هذه الميزة بسوء نظمه لها، والبحري تفوق على صاحبه بجلالة نظمه، فأضفى على معانيه الجمال والحسن، فقالوا عنه: لم يخرج على عمود الشعر.

ولقد أحس جمع من النقاد المعاصرين بهذه الخصوصية لعمود الشعر، فمحمد مندور في النقد المنهجي يكرر فكرة أن أبا تمام لم يستطع الفكاه من التقاليد الشعرية القديمة، إلا من جهة الصياغة، فيقول عن أبي تمام: إنه "لم يغير شيئاً في الأصول الفنية للشعر العربي، ولم يخرج إلا على عموده كما يقولون، ومعنى العمود عندهم فيما يبدو هو الصياغة"^(٢)، ويقول في معرض آخر: "تستطيع أن تقرر أن مذهب أبي تمام كان قبل كل شيء مذهب صياغة"^(٣)، وكذلك يرى طه إبراهيم أن أبا تمام أبعد كثيراً عن الصياغة التي جرى الشعراء عليها في الجاهلية والإسلام، وكان أبو تمام الطائي في منزل الحسين بن الضحاك وهو ينشد شعره، وعنده إسحاق الموصلي، فقال له إسحاق: يا فتى ما أشد ما تتكئ على نفسك؟! يعني: أنه لا يسلك مسلك الشعراء قبله،

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري، ١/ ٤٢٠-٤٢١.

(٢) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، محمد مندور، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م، ص ٧٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٧.

وإنما يستقي من نفسه^(١)، ويرى عبد الحكيم راضي أن مآخذ الأمدي على أبي تمام تنصب في معظمها على "الناحية اللغوية، والخروج بالعبارة من حيث التركيب والمعنى عن الاستعمال المألوف، بطريقة تطمس المعنى وتعميه، وتسيء في نفس الوقت إلى جمال العبارة وسلاستها"^(٢)، ويؤكد عثمان موافي على هذا الخروج فيقول: "كان أخطر اتهام وجهه المحافظون من النقاد، إلى بعض المجددين من هؤلاء الشعراء هو خروجهم كما أشرنا على الصياغة التعبيرية المألوفة للشعر العربي"^(٣).

ولهذا قلنا: إن خروج أبي تمام على عمود الشعر إنما كان لشيء اختص به عن باقي شعراء عصره وسالفهم، أو أنه على الأقل أكثر منه إلى حد الإفراط، بطريق يدعو إلى مناهضته والثورة عليه، ودليل ذلك قول الأمدي واصفاً له: "وعلى أنني لا أجد من أقرنه به؛ لأنه ينحط عن درجة مسلم؛ لسلامة شعر مسلم، وحسن سبكه، وصحة معانيه"^(٤).

وإن مفتاح كل علم مفاهيمه ومصطلحاته، فإذا فهم المصطلح على وجهه الصحيح، وحدد بشكل دقيق، نكون قد خطونا الخطوة الأولى السليمة للمعرفة، فما بُني على صالح فهو صالح. وعلى هذا فإن مفهوم عمود الشعر إنما يراد منه بوجه دقيق تلك الصياغة التعبيرية التي عُرفت عند العرب قديماً، وهذه الصياغة التعبيرية شاملة لكل العناصر السبعة التي قام عليها العمود، فهي لا تكاد تخرج عن هذا الأمر الجامع، وأما الخروج على عمود الشعر فإنما يراد به تلك الصياغة التعبيرية الجديدة للمعاني الشعرية، التي أحدثها أبو تمام على الشعر العربي.

الخاتمة:

أما بعد: فقد وصل البحث إلى مرحلته الأخيرة من هذه الدراسة التي تناولت دلالة مفهوم قضية نقدية مهمة، هي قضية عمود الشعر العربي، الذي يعتبر القلب النابض والهيكل الحيوي والمكون الأساسي للأصول الجمالية في النص الشعري العربي، وهذه الدراسة أبانت عن موقع عبارة عمود الشعر بين المصطلح والمفهوم، وأبانت عن الدلالة بين القديم والحديث، وخلصت إلى النتيجتين المهمتين الآتيتين:

اكتسب عمود الشعر وصف المفهوم لا المصطلح؛ لأن تصورنا له يكون وفق صفات عامة ومتعددة، تتمثل في الألفاظ والمعاني، والصور البيانية والموسيقى، والمصطلح أكثر ثباتاً من

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، طه أحمد إبراهيم، الفيصلية، مكة المكرمة، ص ١٢٦-١٢٧.

(٢) النقد العربي وشعر المحدثين في العصر العباسي محاولة لقراءة جديدة، دار الشايب للنشر، ط ١، ١٩٩٣م، ص ١٦٦-١٦٧.

(٣) الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم تاريخها وقضاياها، عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٩م، ص ١٤٤.

(٤) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحثري، ١/ ١٤.



المفهوم؛ لأنه يعطي تصوراً دقيقاً ومعنى محدداً للقضية، أما المفهوم فتعثره العمومية وعدم التحديد.

كثرت التصورات النقدية الحديثة التي تحاول تفسير مفهوم عمود الشعر، إلا أن المراد منه على وجه التحديد يتمثل في تلك الصياغة التعبيرية النظامية التي عرفت عند العرب قديماً، وهذه الصياغة التعبيرية شاملة لكل العناصر السبعة التي قام عليها عمود الشعر، فهي لا تكاد تخرج عن هذا الأمر الجامع.

المصادر والمراجع:

تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، طه أحمد إبراهيم، الفيصلية، مكة المكرمة.

تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، إحسان عباس، ط ٤، ١٩٩٩م.

تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الشروق، عمان، الأردن، ط ١ الإصدار ٤، ٢٠٠٦م.

الجواهري وعمود الشعر، طراد الكبسي، المجلة الثقافية، ع ٤٢، الأردن، ١٩٩٧م.

الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم تاريخها وقضاياها، عثمان موافي، دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٩م.

شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢م.

الشعر بين الرؤيا والتشكيل، عبد العزيز المقالح، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط ٢، ١٩٨٥م.

الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٢م.

طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.

العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط ٥، ١٩٨١م.

عمود الشعر العربي في موازنة الأمدي، علي صبح، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٦م.

عمود الشعر العربي وتقنيات الشاعر: الإصاغة في الوصف أنموذجاً، تركي أحمد، مجلة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، السعودية، ع ٦، ٢٠١٤م.



عمود الشعر في عيون خصومه، طه عبد الرحيم عبد البر، مجلة بيار، السعودية، ٧٤، ١٩٩٢م.

عمود الشعر في قراءة السنة الشعرية عند العرب، توفيق الزيدي، دار قرطاج للنشر والتوزيع، تونس، طبعة منقحة ٢٠٠٢م.

عمود الشعر مواقعه ووظائفه وأبوابه، عبد الكريم محمد حسين، دار النمير، دمشق، ٢٠٠٣م.
عودة إلى عمود الشعر وطغيان التناسخ، هيا الحوراني، أقلام جديدة، الأردن، ٢٤٤، ٢٠٠٨م.
فيض الخاطر مقالات أدبية واجتماعية، أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.
القارئ القياسي القراءة وسلطة القصد والمصطلح والنموذج (مقاربات في التراث النقدي)، صالح زياد، دار الفارابي، بيروت، ١، ٢٠٠٨م.

القارئ القياسي القراءة وسلطة القصد والمصطلح والنموذج (مقاربات في التراث النقدي).
قاموس اللسانيات، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ط١، ١٩٨٤م.
قضايا الشعر المعاصر، نازك الملائكة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٧٨م.
قضية الشعر الحر في العربية، عبد الواحد لؤلؤة، مجلة شعر، ع٤٣، ١٩٦٩م.
لسان العرب، ابن منظور، تحقيق، مجدي فتحي السيد، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، ٢٠٠٩م.
المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين، شكري محمد عياد، عالم المعرفة، ١٩٩٣م.
المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب، دار الفكر، الكويت، ١٩٨٩م.
المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
المفاهيم معالم نحو تأويل واقعي، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠١٠م.

منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م.

الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، الحسن بن بشر الأمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر وعبد الله المحارب، دار المعارف ومكتبة الخانجي، مصر، ط٤، ١٩٩٤م.

الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، ١٩٣٣م.

نظريات الشعر عند العرب (الجاهلية والعصور الإسلامية) نظريات تأسيسية ومفاهيم ومصطلحات، مصطفى الجوزو، دار الطليعة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.



نظرية عمود الشعر العربي في الميزان نحو نظرية للفحولة، وليد عثمان، مقال علمية، مجلة
جيل الدراسات الأدبية والفكرية، الجزائر، العدد: ٢٧، ٢٠١٧م.
النقد العربي وشعر المحدثين في العصر العباسي محاولة لقراءة جديدة، دار الشايب للنشر،
ط١، ١٩٩٣م.
النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة، محمد مندور، نهضة مصر للطباعة
والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.
الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو
الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.